النظام الصحي والإغاثي في الدولة العثمانية

م. د. قيس أسعد شاكر حميّدي

المديرية العامة لتربية صلاح الدين – قسم تربية سامراء

The health and relief system in the Ottoman Empire

Dr.Asst. Qais Asaad Shakir Humaidi

General Directorate of Saladin Education - Samarra

Education Department

الملخص

بدأت الدولة العثمانية بالإهتمام في الأُمور الصحية بشكل دقيق منذُ عام ١٨٣٨م، إذ قامت في ذلك العام بتطبيق نظام الحجر الصحي ((Quarantine))، لتصدر بعد ذلك بعامين أي في عام ١٨٤٠م نظاماً خاصاً أسمته (نظام الكورنتينا). وأستمرت الدولة العثمانية بإصدار التعليمات والملاحق الفرعية الخاصة بهذا النظام الصحي، وفي الحادي والعشرون من تموز عام ١٨٧١م قامت الدولة العثمانية بنشر أول نظام يتعلق بالصحة العامة وإدارتها في العاصمة إسطنبول وفي بقية الولايات العثمانية على حد سواء، وهذا النظام هو (نظام الإدارة العمومية الطبية)، الذي نص على توجه الدولة العثمانية وإهتمامها بمجمل الأوضاع الصحية دون إقتصارها على الحجر الصحي فقط.

الكلمات المفتاحية: النظام الصحي، الدولة العثمانية، الحكيمباشي، دار الشفاء، دار الطب، عهد التنظيمات، جمعية الهلال الأحمر.

Abstract

The Ottoman Empire began to pay attention to health matters since 1838, when in that year it applied the quarantine system, and two years later, that is, in 1840, it issued a special system called ((Quarantine System)). The Ottoman Empire continued to issue instructions and sub-annexes for this health system, and on the twenty-first of July 1871 the Ottoman Empire published the first system related to public health and its management in the capital Istanbul and in the rest of the Ottoman provinces alike, and this system is (Medical Public Administration System), Which stipulated the Ottoman Empire's orientation and its interest in the overall health conditions without limiting it to quarantine only. **Key words:** Health system, Ottoman empire, Al-Hakimbashi, Dar Al-Shifa, House of Medicine, the era of Tanzimat, the Red Crescent Society.

المقدمة

نظراً لما كانت تتمتع به الدولة العثمانية من أهمية ومكانة مرموقة بين الدول على مر العصور فقد أُنشئت فيها مؤسسات بمختلف المجالات وأبرزها المؤسسات الطبية. بدايةً لم يقف أطباء الدولة العثمانية موقف الساكن أو المتفرج من تطور علوم الطب في دول أُوروبا، فكانت تتم ترجمة كتب الطب الأوروبية إلى العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، إذ أخذ الطب الغربي بالتطور منذ القرن السابع عشر الميلادي وفي القرن الثامن عشر شُرع في ترجمة الكتب الطبية الأُوروبية إلى اللغة العثمانية. وبذلك شهد القرن التاسع عشر الميلادي ظهور مؤسسات علمية رسمية في الدولة العثمانية كما هو الحال في أُوروبا، وكانت هذه المؤسسات مهتمة بما يجري من تطورات بالجانب التطبيقي في فروع العلم الحديث كالطب والصحة العامة وغيرها. فضلاً عن ذلك كان للدولة العثمانية إهتماماً كبيراً بالجانب الإنساني والإغاثي من خلال تأسيسها لجمعية الهلال الأحمر، وكان نظام الإدارة العمومية الذي أصدرته الدولة العثمانية قد أوجب على أن تقوم كل بلدية من بلديات مدن الولايات بتعيين طبيب ومعاون له في المدن الكبيرة لكي يقوموا بمعاينة المرضى مجاناً ولمرتين في الأُسبوع، كما أوجب النظام أيضاً على أن تقوم كل بلدية من بلديات المدينة بفتح صيدلية عامة تزود الفقراء بالأدوية مجاناً، وبدوره تكتفي البلدية بدفع مرتبات الأطباء والصيادلة فقط، ولكن توجيهاتهم وتعليماتهم تكون مرتبطة بإدارة الأمور الطبية في إسطنبول. وبناءً على كل ما تقدم وقع إختيارنا لعنوان البحث المعنون: **((النظام الصحي والإغاثي في الدولة العثمانية))**، والذي تم تقسيمه إلى مقدمة وأربع محاور وخاتمة لخصت أبرز الإستنتاجات التي وردت في صفحات البحث. **وكانت محاور البحث مُقسمة كالآتي:**

أولاً: الهيكلية الإدارية في النظام الصحي العثماني.

ثانياً: المؤسسات الصحية في الدولة العثمانية.

ثالثاً: تطور القطاع الصحي في الدولة العثمانية.

رابعاً: النظام الإغاثي في الدولة العثمانية ((جمعية الهلال الأحمر – أُنموذجاً)).

أولاً: الهيكلية الإدارية في النظام الصحي العثماني: تندرج المناصب الإدارية الطبية ضمن تشكيلات الدولة العثمانية إلى أقسام عديدة أبرزها منصب رئاسة الأطباء أو ما يعرف بـ (الحكيمباشي)[١] في القصر السلطاني (السراي)، إذ كان يوجد لدى العثمانيين كما هو الحال في الدول الاسلامية والتركية السابقة كبير للأطباء يعنى بالشؤون الصحية للموجودين في السراي وعلى رأسهم السلطان، وكان رئيس الأطباء يقوم بإدارة المؤسسات الصحية في الدولة العثمانية. وكان أول رئيس للأطباء (حكيمباشي) تولى إدارة الشؤون الصحية في الدولة العثمانية بالمعنى العام هو (إزميدلي محمد محي الدين أفندي) وقد شغل المنصب في أيام السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١– ١٥١٢م)[٢].وكان يطلق عليهم في السجلات الرسمية أسماء مثل (رئيس الأطباء) أو كبير أطباء السلطان (سر أطباي سلطاني) أو كبير أطباء الخاصة السلطانية (سر أطباي خاصة) لأنهم كانوا مسؤولين عن صحة السلطان وأفراد عائلته، أما بين الأهالي فكان يُعرف كبير الأطباء بأسم (حكيمباشي أفندي)، ويجري

إختيار الحكيمباشي من بين هيئة رجال العلم، ممن لهم خبرة في فنون التداوي وأحاطوا بعلم الطب، وكان المتعارف عليه في أوائل عهد الدولة العثمانية عندما يموت السلطان بأجله، أن يعزل الحكيمباشي من منصبه بدعوى أنه إما أهمل أو أخطأ، بينما كانوا يبقون عليه في منصبه عندما يخلع السلطان عن العرش، وكان الأجر اليومي للحكيمباشي يبلغ في القرن السادس عشر (٨٠ أقجة)[٣]، وأجره الشهري (٢٤٠٠ أقجة) يتقاضاه من الخزانة العامرة، وزادت رواتبهم في العهود الأخيرة حتى بلغت (٦٥٠٠ أقجة)[٤].لقد كانت وظيفة الحكيمباشي الأصلية داخل السراي هي العناية بصحة السلطان وأفراد عائلته، فهو يبذل ما في وسعه لحماية صحة السلطان بوجه خاص ويسعى لوقايته من الأمراض، ولا يفارقه حتى في أثناء الطعام، فهو يلازمه أينما ذهب، فإذا خرج إلى الحرب خرج بصحبته، وبذلك فهو يشغل وظيفة مستشار السلطان في الأمور الصحية[٥].ويدير الحكيمباشي الصيدليات والمصحات في السراي، ويترأس فريقاً عدده واحد وعشرون شخصاً من الأطباء والجراحين والكحالين، وهو الذي يتولى اختيارهم ويشرف عليهم ويعزل من لا يراه مناسباً منهم، وهو أيضا الذي يدير الشؤون الصحية في كافة أنحاء البلاد عدا عمله في السراي. ولأن المؤسسات الصحية داخل حدود الدولة العثمانية كانت تحت إمرته فقد كان تعيين الأطباء والجراحين والكحالين والصيادلة في كافة المستشفيات وكذلك تعيين الأطباء في الجيش منوطاً بأمره[٦]. وكانت العادة عندما يتخرج الطبيب من مدرسة الطب أو من أحد دور الشفاء ويحصل على الإجازة منها يتم تسجيله في سجلات الحكيمباشي، ويأخذ دوره في إنتظار التعيين، ويقوم هو الآخر بتعيين الأطباء الجدد في الأماكن الشاغرة، ويصادق على ترقية الأطباء العاملين فيها، كما كانت رخصة الأطباء والجراحين للموافقة على فتح عيادات خاصة بهم ولاسيما في إسطنبول منوطة بإذن وموافقة من الحكيمباشي، وهو كذلك المعني بشكل مباشر بأمور التعليم الطبي داخل السراي وخارجه، وكان يقوم بين الحين والآخر هو ورئيس الجراحين ورئيس الكحالين بالتفتيش في إسطنبول على الأطباء والجراحين والكحالين والعطارين من المسلمين وغير المسلمين ويختبر معارفهم، ويغلق حوانيت غير المجازين وضعيفي الأهلية وقليلي الخبرة والكفاية منهم، ويمنعهم من مزاولة المهنة، بينما كان يمنح الأكفاء منهم رخصة عمل تحمل ختمه[٧]. وكان من بين أبرز الأطباء الذين شغلوا ذلك المنصب وقاموا بوضع مؤلفات مهمة في مجال الطب الطبيب أمير چلبي[٨]، والحكيمباشي صالح بن نصر الله[٩]، وهناك أيضا الحكيمباشي حياتي زاده مصطفى فيضي أفندي[١٠]، فضلاً عن الحكيمباشي صبحي زاده عبد العزيز أفندي[١١]، وكذلك الحكيمباشي مصطفى بهجت أفندي[١٢]. وفي اطار حركات التغريب التي واكبت عهد التنظيمات ((Tanzimat))[١٣] أخذ منصب الحكيمباشي يفقد شيئا فشيئا من وضعه في المسؤولية عن كافة الشؤون الصحية في الدولة، وانحسرت وظيفته على شؤون السراي وحده وذلك مع تشكيل الدائرة الصحية في نظارة الحربية (وزارة الدفاع) التابعة للقيادة العسكرية العامة في سنة ١٨٣٧م[١٤]، أما بعد عام ١٨٣٩م فقد بدأ تنصيب أطباء لهذا المنصب من خارج رجال الهيئة العلمية، ثم ظهور كلية الطب الشاهانية (مكتب طبية شاهانة) عام ١٨٥٠م ونظارة الشؤون الطبية المدنية (أمور طبية ملكية نظارتي)، وإصدار القوانين واللوائح والقواعد التي تنظم الشؤون الصحية أقتصرت صفته على أنه الطبيب الخاص للسراي فقط، وجرى تغيير اسمه أيضاً عام ١٨٤٤م ليصبح اسمه (سر طبيب شهرياري)[١٥]. وكان آخر أطباء الخاصة السلطانية هو الدكتور رشاد باشا، وتدل المعلومات المتاحة في المصادر على أن هناك أربع وأربعين حكيماً تولوا منصب الحكيمباشي خلال الحقبة الواقعة بين عام ١٤٨٤م حتى عام ١٨٤٤م ، ويوجد بين هؤلاء من تولى ذلك المنصب مرتين أو ثلاث مرات[١٦].

ثانياً: المؤسسات الصحية في الدولة العثمانية: انقسمت المؤسسات الصحية والتي هي من ضمن التشكيلات العلمية للدولة العثمانية إلى أقسام ومؤسسات ومدارس طبية عديدة أبرزها:

أ_ دار الشفاء: ويطلق على الأبنية التي تُعنى بالشؤون الصحية في الدولة العثمانية أسماء مثل: دار الشفاء، دار الصحة ، شفاخانة. وكان أول دار للشفاء أُقيم في الأناضول خلال العهد العثماني هو الدار الذي أقامه السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ – ١٤٠٣م) (بايزيد يلدرم – بايزيد الصاعقة) في بورصة ((Bursa)) شمال غرب الدولة العثمانية، إذ شُيدت في (٢٨رمضان ٨٠٢ هـ – ١٢ آيار ١٤٠٠م) على سفح جبل (أولوداغ) في شرق المدينة وفي جوار جامعها مباشرةً، واستمرت تمارس نشاطها حتى أواخر القرن التاسع عشر[١٧]. وقد أُقيم عدد كبير من هذه المستشفيات خلال العهد العثماني، ولا سيما في إسطنبول، وأول مستشفيات دار الشفاء في إسطنبول تلك التي أُقيمت داخل كلية الفاتح عام ١٤٧٠م. وكانت تضم سبعين حجرة (غرفة)، وتحتوي على أقسام مستقلة لعلاج النساء والمرضى من غير المسلمين، وكانت تتولى العناية بالمرضى وعلاجهم على أحسن وجه، حتى أنها كانت تستخدم الموسيقى علاجاً لمرضى الأمراض العقلية، وقد أستمرت تلك الدار في القيام بوظيفتها حتى عام ١٨٢٤م ثم لم تلبث أن زالت ولم يعد لها أي أثر[١٨]. وهناك دار الشفاء التي شيدها السلطان بايزيد الثاني (بايزيد دار الشفاسي) عام ١٤٨٨م، في أدرنة ((Edirne)) الواقعة في غرب الدولة العثمانية على الحدود اليونانية والبلغارية، وكانت تحتل مكانة هامة

في علاج أمراض العيون ومداواة الأمراض العقلية[١٩].وهناك دار الشفاء الذي أقامته (عايشة حفصة سلطان) زوجة السلطان سليم الأول (١٥١٢_١٥٢٠م) ووالدة السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠_١٥٦٦م) في مدينة مغنيسيا ((Magnesia)) الواقعة في المناطق الغربية من الدولة العثمانية عام ١٥٢٢م، وهو على الرغم من صغر حجمه إلا أنه ظل يأوي مرضى الأمراض العقلية لمدة طويلة إمتدت حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكان واحداً من دور الشفاء الذي يُعالج المرضى بإستخدام الموسيقى، غير إنه ترك فيما بعد، ويجري إستخدامه اليوم كأحد المتاحف[٢٠].أما عن دار الشفاء التي تأسست عام ١٥٥٠م والتي تقع في الركن الغربي من كلية السليمانية، كانت تحتل المكانة الأرفع في ترتيب المستشفيات العثمانية، وكان الطلاب الدارسون في مدرسة الطب يتلقون الدروس النظرية في المدرسة أربعة أيام في الأسبوع، أما الدروس العملية والدورات التطبيقية فكانوا يتلقونها في دار الشفاء تلك، وكانت تحتوي عدا الأقسام الأخرى المختلفة قسماً مستقلاً لعلاج الأمراض العقلية، ثم لم تلبث بعد ذلك أن خُصصت بكاملها لعلاج ذلك النوع من الأمراض، وبقيت على ذلك حتى عام ١٨٦١م ثم تركت تماماً[٢١]. كما أقامت زوجة السلطان سليمان القانوني (خاصكي خرم سلطان) عام ١٥٥٠م أيضاً مستشفى في إسطنبول يحتوي على كافة التجهيزات، عرف باسم (دار شفا خاصكي) ، ثم جرى تخصيص ذلك الدار فيما بعد لعلاج النساء فقط، وفي عام ١٨٨٤م تم تخصيص الدار لعلاج المصابين بالأمراض العقلية من الرجال، واستمر قائماً على ذلك حتى عام ١٩١٦م[٢٢]. وهناك دار الشفاء التي شيدها المعمار سنان عام ١٥٨٣م لوالدة السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ –١٥٩٥م) وزوجة السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤م) السلطانة (نور بانوا) في أوسكودار ((Üsküdar)) الواقعة في الجانب الآسيوي من مدينة إسطنبول، وعرفت باسم (والدة عتيق دار الشفاسي) أي دار شفاء الوالدة الكبرى، وكانت تعالج فيه كافة الأمراض غير أنها خُصصت منذُ عام ١٨٥٨م حتى عام ١٩٢٧م لعلاج مرضى الأمراض العقلية. كما تم في عام ١٦١٧م إنشاء دار شفاء السلطان أحمد (١٦٠٣ – ١٦١٧م)[٢٣]. وفي إطار حركة التحديث التي ظهرت في أجهزة الدولة العثمانية والمجتمع أثناء عهد التنظيمات كان من الطبيعي بالنسبة لدور الشفاء التي تعتمد على نظام الوقف أن تترك وظائفها لمستشفيات تعتمد على ميزانية الدولة وتُدار بأساليب حديثة، إذ بدأ بناء المستشفيات على الطراز الأوربي الحديث[٢٤].

ب_ مدرسة طب السليمانية أو دار الطب: وهي أولى المدارس الطبية التي أقامها الأتراك العثمانيون، إذ شيدها السلطان سليمان القانوني عام ١٥٥٥م، وكانت تشكل قسم من كلية السليمانية، وقد بُنيت خصيصاً لأجل علم الطب، وهي تشبه مدارس الطب التي ذكرها التاريخ في الدول الاسلامية السابقة، غير أنها تختلف عنها في كونها تقع داخل مجمع معماري متكامل، وبقيت تمارس التعليم الطبي لمدة تقرب من ثلاثة قرون، إذ أُقيمت تلك المدرسة بقصد تنشئة الأطباء المتخصصين، وبذلك أحتلت المدرسة مكانة مهمة جداً في مجال التخصص الطبي[٢٥].وقد عمل في تلك المدرسة أحد عشر مدرساً كان يتقاضى كل مدرس منهم أجراً يومياً قدره (٢٠ أقجة) (٧٣٠٠ في السنة)، وعمل فيها ثمان معيدون يتقاضى كل منهم أجراً قدره (١٦ أقجة) (٥٨٤٠ في السنة)، كما عمل فيها عدد آخر من العاملين. أما المدرسين الذين كانوا يؤهلون الطلاب لمرحلة التعليم العالي فكان كل مدرس منهم يتقاضى أجراً يومياً قدره (١٥ أقجة)، وكان أول مدرس جرى تعيينه في دار طب السليمانية هو أحمد جلبي الذي كان يتقاضى أجراً يومياً قدره (٦٠ أقجة)[٢٦].وكان علم التشريح يُدرس في المدرسة السليمانية، فضلاً عن مصادر الطب الأساسية مثل قانون إبن سينا[٢٧]، وكانت إختبارات الطب النظرية تُجرى في المدرسة بينما الإختبارات العملية كانت تُجرى في دار الشفاء، وبقيت دار طب السليمانية تخرج الطلاب حتى أواسط القرن التاسع عشر (أي بعد مدة من إفتتاح كلية الطب الحديثة). ولايزال البناء الذي كانت تشغله دار طب السليمانية موجوداً إلى اليوم ويتم إستخدامه كمستشفى للنسائية والتوليد[٢٨].

ت_ مدارس الطب العسكرية: تأسست في شهر (شوال ١٢٢٠ هـ – كانون الثاني ١٨٠٦ م) مدرسة للطب سُميت مدرسة طب الترسانة (ترسانة طبية سي)، وكان الهدف من تأسيس تلك المدرسة هو تلبية الحاجة إلى الأطباء والجراحين في الترسانة العسكرية للأُسطول العثماني، ثم العمل على نشر التعليم الطبي في الأراضي العثمانية، وزيادة عدد الأطباء من رعايا الدولة العثمانية. وكان التفكير أن يكون التدريس فيها بإحدى اللغات الأُوربية كالإيطالية أوالفرنسية، كما تقرر أن يتم إستيراد الكتب والأدوات اللازمة للعملية التعليمية من أُوروبا، فضلاً عن شراء الكتب والدوريات الطبية التي تصدر شهرياً في كبريات المدن الأُوروبية مثل باريس وفينا ولندن، وكانت تلك المدرسة هي الأولى في مجال الطب الحديث التي فُتحت داخل الترسانة العسكرية العثمانية، غير أن نشاطها لم يدم طويلاً حيث توقف نشاط المدرسة بعد عامين فقط من إفتتاحها[٢٩].وبعدها بعشرين عام تقريباً أي في سنة ١٨٢٧م تأسست مدرسة للطب الحديث في إسطنبول تحت اسم دار الطب العامرة (طبخانة عامرة) وكان تأسيسها بجهود ودعم من الحكيمباشي مصطفى بهجت أفندي وذلك من أجل تلبية حاجة الجيش إلى الأطباء والجراحين، وإدراكاً من مصطفى بهجت أفندي لأهمية اللغة الأجنبية في تعليم الطب فقد أشار بإدراج دروس اللغة الأجنبية في المقررات التعليمية للطلاب في

دار الطب (طبخانة) وفي دار الجراحة (جراح خانة) حتى يتعرفوا على اللغات الأوربية، إذ كان التعليم (بالإيطالية أولاً ثم الفرنسية ثانياً). ومن خلال تلك البرامج التعليمية تقررت الأُسس الجديدة للتعليم الطبي عند العثمانيين، وقد تضمنت تلك الأُسس أن يكون للمدرسة مدير ومعلمان، ويكون إختيار المدير من بين المسلمين بصورة قطعية، ويكون طلاب المدرسة من المسلمين، أما المعلمان فيكون من الأفضل إختيارهما هما الآخرين من المسلمين، وإذا تعذر ذلك فلا بأس أن يكونا من غير المسلمين، وأن تقوم المدرسة بتخريج الأطباء والجراحين لغرض دعم وتعزيز الجيش العثماني ورفده بوحدات طبابة عسكرية، وتكون لغة التدريس في المدرسة هي اللغة الفرنسية[٣٠].ثم تم بعدها إفتتاح دار الجراحة العامرة في التاسع والعشرون من كانون الثاني عام ١٨٣٢م داخل بناية حديقة (كلخانة) المجاورة لسراي طوب قاپى، وفي عام ١٨٣٨م تم دمج هاتين المدرستين (دار الطب العامرة و دار الجراحة العامرة) في مدرسة واحدة عرفت باسم مدرسة الطب (مكتب طبية)، واستمرت تواصل نشاطها حتى جرى نقلها إلى المبنى الجديد في منطقة غلطة ((Galata))[٣١] عام ١٨٣٩م، ثم تغير أسم المدرسة مرة أُخرى ليصبح أسمها الجديد المدرسة الشاهانية للطب الشرعي (مكتب طبية عدلية شاهانة) [٣٢].

ث_ مدرسة الطب المدنية: نتيجة لقلة الخريجين من الأطباء وكثرة الطلاب غير المسلمين بادر جمال الدين أفندي الذي أصبح ناظراً (مديراً) للمدرسة الطبية عام ١٨٦٥م بوضع الأُسس الأولى لمدرسة طب مدنية عُرفت باسم (مكتب طبية ملكية)، وأُقيمت بعد ذلك لغرض زيادة عدد الأطباء المسلمين في أرجاء الدولة العثمانية، وكان جمال الدين أفندي بحكم الوظائف التي تولاها في العديد من الولايات يعرف أحوال الولايات العثمانية عن كثب، فقام بتشكيل (صف ممتاز) في المدرسة إختار طلابه من بين الشبان المتفوقين، وأدرج ضمن برنامجهم التعليمي دروس اللغات العثمانية والعربية والفارسية لتكون تلك الحركة هي الأولى على طريق عثمنة التعليم الطبي فيما بعد، إذ كان يرى أن تخريج أكبر عدد من الأطباء المسلمين مرتبط بمدى إستخدام أبناء الدولة العثمانية إلى لغتهم الأُم في التعليم الطبي، وفي عام ١٨٦٦م بدأ الصف الممتاز نشاطه التعليمي داخل مدرسة الطب الشاهانية تحت اسم مدرسة الطب المدنية (مكتب طبية ملكية) ، والميزة الأساسية في المدرسة أنها تأسست لتخريج أطباء مدنيين يجري إستخدامهم في الولايات، وليس في الجيش العثماني[٣٣].

كما تقرر أن تكون الدراسة في مدرسة الطب المدنية نهارية ومدتها خمس سنوات ويجري التعليم باللغة العثمانية، وبعدها زادت مدة التعليم سنة إضافية أُخرى، لتصبح مدة التعليم فيها ست سنوات، وأصبح خريجوها يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها خريجوا الطب العسكري. وقام (الصف الممتاز) مع بقية أعضاء الجمعية الطبية المدنية التي شكلوها بنشر أول معجم طبي حديث باللغة العثمانية وذلك في عام ١٨٧٣م، وعرف باسم (لغت طبيه)، وفي عام ١٩٠٩م تم إعادة دمجها مع مدرسة الطب العسكرية (مكتب طبية عسكرية) ثم تم نقل بنايتها إلى منطقة حيدر باشا في إسطنبول، وفي عام ١٩١٥م جرى ربطها بدار الفنون (أي جامعة إسطنبول حالياً)، وبذلك تحولت إلى كلية طب تتبع اليوم جامعة إسطنبول[٣٤].

ج_ مدرسة طب الشام: تماشياً مع السياسة التعليمية والصحية التي إنتهجها السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦_١٩٠٩م) جرت بعض المحاولات لغرض إقامة مدارس للطب في الولايات الكبرى عدا إسطنبول، وكانت المحاولة الوحيدة التي نجحت في ذلك المسعى هي مدرسة طب الشام (شام مكتب طبية سي) التي أُقيمت في الحادي والثلاثين من آب عام ١٩٠٣م، وكان السبب في إقامتها بدمشق هو لغرض الحد من النفوذ الذي كان لمدرستين أجنبيتين في نفس المنطقة تقومان بتدريس الطب هناك إحداهما فرنسية والثانية أمريكية، وجرى اثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤_١٩١٨م) نقل تلك المدرسة إلى بيروت، فلما جرى إحتلال الأخيرة عام ١٩١٨م أُغلقت المدرسة، وعادت تمارس نشاطها بدمشق تحت أسم (معهد الطب العربي)[٣٥].

ثالثاً: تطور القطاع الصحي في الدولة العثمانية: كانت الخدمات الصحية الحكومية في الدولة العثمانية كانت مقتصرة بشكل عام على أفراد المؤسسة العسكرية. أما احتياجات الشعب الصحية كانت تُقدم من قبل المواطنين الأغنياء والخيرين وعن طريق المراكز والعيادات الأهلية الشخصية التابعة للأطباء، علماً إن هيئة رئاسة الاطباء كانت هي المسؤولة عن جميع الوحدات الطبية المتواجدة في أرجاء الدولة العثمانية، ومن وظائف هذه الهيئة تنظيم الشؤون الصحية للجيش وتعيين الأطباء والموظفين الصحيين وتقديم المساعدات وإدارة الشؤون الصحية والبيئية[٣٦].إستمرت هذه الحالة حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأ توجه الدولة العثمانية نحو إقتباس وتطبيق الأنظمة واللوائح ومظاهر الحياة الغربية في مختلف جوانب الحياة ومنها الجانب الصحي، إذ بدأ في عهد السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨_١٨٣٩) تطبيق حركة الإصلاحات أو التنظيمات وظهرت بوادر التطور والتمدن في الناحية الصحية من خلال تأسيس مراكز صحية عصرية، لا سيما وإن العثمانيون كانوا في تلك المدة يتابعون عن كثب ما يجري في أوروبا من تطورات في مجالي الطب والصحة، ونتيجة

للجهود الحثيثة التي بذلها رئيس الأطباء مصطفى بهجت أفندي فقد تم افتتاح أول مركز صحي يقوم بتقديم الخدمات التعليمية وفق المناهج الغربية، وذلك في الرابع عشر من آذار ١٨٢٧م، وتم إستحداث قسم الجراحة لغرض تقديم الخدمات الطبية وذلك في عام ١٨٣١م[٣٧]. فضلاً عن ذلك تم في عام ١٨٣٨م حدوث تطور في مجال الطب الوقائي من خلال إقامة المحاجر الصحية (الكرنتينة)، وتشكيل مجلس للحجر الصحي عُرف باسم (مجلس تحفظ أولي)[٣٨]. كما تم تأسيس دار العلوم الطبية العثمانية والذي سميَ في يومنا هذا بكلية الطب وذلك في عام ١٨٣٩م، وكان الهدف من تأسيسه هو إعداد وتخريج أطباء عسكريين مكرسين لخدمة الجيش العثماني، وفي العام ذاته تم تأسيس مجلس الصحة العالمي من قبل الحكومة العثمانية[٣٩]. وكان ناظر الخارجية (وزير الخارجية) مصطفى رشيد باشا قد نجح في مسعاه من خلال المقترح الذي قدمه في شهر كانون الثاني عام ١٨٤٠م والذي يقضي بتحويل مجلس الحجر الصحي إلى صفة مجلس دولي للحجر الصحي، وذلك من خلال دعوته لمندوبين من بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول العالم لمعاينة التطورات التي طرأت على القطاع الصحي في الدولة العثمانية، وفي السابع والعشرون من شهر آيار عام ١٨٤٠م تم نشر لائحة تنظيمية للحجر الصحي باللغتين العثمانية والفرنسية جرى إعدادها بمشاركة كافة المندوبين من الدول الأوربية، وقد بلغ عدد المحاجر الصحية في عام ١٨٦٢م (٨١ محجراً) توزعت في شتى آراضي الدولة العثمانية والمدن والقصبات وعلى رأسها العاصمة إسطنبول[٤٠].ونتيجة للتطورات الحاصلة آنذاك من جراء التوسع السكاني وزيادة أعداد أفراد الجيش العثماني تم إفتتاح مدرسة طبية جديدة وذلك في عام ١٨٦٦م لغرض تقديم الخدمات الطبية ليس للجيش العثماني فحسب بل للمدنيّين أيضاً[٤١].تأسست الجمعية الطبية في عام ١٨٧٨م وهذه الجمعية سُميت (مجلس المعارف الطبي) ولكن في عهد المشروطية الثانية تم تغيير هذا الإسم إلى (المجلس الطبي الصحي العمومي) التابع لوزارة الداخلية. وبعدها قام بتوسيع خدماته وأعماله وصلاحياته، وفي نفس العام تم تأسيس مديرية الصحة العمومية، إذ سارت هذه المديرية على القوانين المقتبسة من الأنظمة الصحية الإيطالية[٤٢].كان العثمانيون يتابعون الى جانب ذلك ما يجري من تطورات في مجال الأحياء المجهرية التي تتعلق بصحة الانسان، إذ تم إجراء تجربة على الإنسان لإختبار لقاح مرض الكلب الذي قام بتركيبه العالم الفرنسي لويس باستور ((Louis Pasteur))[٤٣] نتيجةً للأبحاث التي قام بها بعد عام ١٨٨٠م، والبحث الذي قدمته أكاديمية باريس الطبية في هذا الموضوع والتي تم نشرها في نفس العام في إسطنبول على صفحات مجلة الجمعية الطبية الشاهانية التي عُرفت باسم ((Gazette Médicale d'Orient))، وفي أعقاب ذلك مباشرةً أُرسلت إلى باريس هيئة طبية برئاسة المير ألاي ((Miralay))[٤٤] الدكتور حسين رمزي بك[٤٥] لغرض التعرف على إمكانية إستخدام ذلك اللقاح في أراضي الدولة العثمانية. وحملت تلك الهيئة معها تبرعاً قدره عشرة آلاف فرنك باسم الدولة العثمانية إسهاماً منها في دعم (معهد لويس باستور) الذي تقرر إفتتاحه في باريس آنذاك، كما سعت الهيئة للقيام ببعض الأعمال في معهد لويس باستور والأماكن الأُخرى المناظرة له، وتعرفت على ما يجري من تطورات ثم عادت إلى إسطنبول، وفي عام ١٨٨٧م أُقيم في إسطنبول معمل لإنتاج لقاح الكلب أُطلق عليه اسم (داء الكلب عملياتخانة سي)، وشرعوا مع مرور الوقت في إجراء البحوث والتجارب البكتريولوجية داخل ذلك المعمل، وتحول إسمهُ إلى (داء الكلب وبكتريولوجي عملياتخانة سي) [٤٦]. أما الإنجازات الأخرى التي طرأت على القطاع الصحي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني هي إنتاج مصل لقاح الجدري الذي عُرف باسم (تلقيح جدري عمليات خانة سي)، فضلاً عن إنشاء معمل اللقاحات الشاهاني الذي عُرف باسم (تلقيحخانة شاهانة). وكل هذه المنجزات التي ظهرت نتيجة لجهود الدكتور ميرألاي حسين رمزي بك في عام ١٨٩٢م، وقد بدأ معمل اللقاح عملهُ بتحضير لقاح الجدري، وتمكن المعمل خلال عامي ١٨٩٢ – ١٨٩٣م من إنتاج جُرعات لقاح تكفي لـ (٧٢٦٠٧٨٤) شخصاً.وبعد إنتشار وباء الكوليرا في إسطنبول عام ١٨٩٣م طلب السلطان عبد الحميد الثاني من المسؤولين إتخاذ التدابير اللازمة، وبتوصية من العالم لويس باستور تم إقامة معمل للبكتريولوجيا في العاصمة إسطنبول، إذ جرت إقامته في مبنى خشبي داخل حديقة مدرسة الطب الشاهانية في (دميرقاپي)، وبدأ نشاطه في عام ١٨٩٣م، وكان المعمل تابعاً لنظارة المدارس العسكرية، وقد قام الأطباء المتخصصين بالطب الوبائي بإجراء دورات عملية ونظرية داخل المعمل وتنشئة متخصصين في البكتريولوجيا والطب البيطري، وبعد إفتتاح المعمل بعامين تم نقل معمل البكتريولوجيا هذا إلى مبنى آخر تم تأجيره في حي (نيشان طاشى) في إسطنبول عام ١٨٩٥م ، وقد بذل المعمل جهود كبيرة إذ تمكن خلال عامي (١٨٩٩_١٩٠٠م) انتاج (٣٧٥٠) قارورة لقاح مضاد للكوليرا.وبالنسبة لمراحل تطور القطاع الصحي في الدولة العثمانية فمنذُ العام ١٩١٣م بدأ العمل بتأسيس المديريات الصحية والطبية العامة وتم تغيير اسم (الطبابة البلدية) إلى (الطبابة الحكومية) لأنها أصبحت مديريات طبية تابعة للحكومة بعدما كانت مراكز طبية تابعة للأطباء الشخصيين، وأيضاً تم تأسيس المجالس الطبية في نفس العام، والتي أصبحت مهتمة بصحة البيئة والتزايد السكاني إذ كانت تتألف من رئيس البلدية ومدير الصحة والطبيب الحكومي ومن المسؤولين المدنيين والعسكريين، إذ إن الدولة كانت تقوم بتعيين الأطباء،

ولكن توفير البنايات اللازمة للمراكز الطبية أو المستشفيات وأجور الأطباء وتوفير المستلزمات الطبية كانت من مسؤوليات الحكام المحليين في المدن[٤٧].كما طرأت على القطاع الصحي في الدولة العثمانية تغييرات منذُ بداية عام ١٩١٤م، إذ تم استحداث مؤسسة عامة للصحة، وكانت هذه المؤسسة المستحدثة تحت إشراف وزارة الداخلية، وبدورها أشرفت هذه المؤسسات على ثلاث مديريات وهي: مديرية الصحة العمومية، ومديرية الحجر الصحي[٤٨]، ومديرية الحجاز الصحية[٤٩].لقد كانت من أهم وظائف وواجبات الأطباء أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى هو الصراع ضد الأمراض المعدية التي كانت منتشرة حينها وكانت تهدد حياة الناس، لذلك تم تعيين الأطباء في المدن والقصبات والقرى وكانوا جميعهم مكلفين من قبل البلدية بأن يقوموا بتشخيص المرضى مجاناً في يومين من أيام الأسبوع وأيضاً إجراء التلقيحات مجاناً، وكذلك الذهاب إلى بيوت المرضى الراقدين في منازلهم و الذين لا يستطيعون أن يتحركوا لغرض تقديم العلاج لهم[٥٠].

رابعاً: النظام الإغاثي في الدولة العثمانية ((جمعية الهلال الأحمر – أُنموذجاً)): أما في الجانب الإنساني فقد تم في الثاني والعشرين من آب عام ١٨٦٤م توقيع إتفاقية ما بين حكومات سويسرا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا وإسبانيا والسويد والنرويج والدنمارك وذلك في العاصمة السويسرية جنيف. وقد تركت الدول المجتمعة الباب مفتوحاً للدول الأخرى التي لم تشارك في الاجتماع. وكانت أبرز القرارات التي اتخذت في هذا الاجتماع هي:

أ_ علاج الجنود المصابين في الحروب سواء أكانوا من الدول (الصديقة أم العدوة).

ب_ الحفاظ على حقوق المصابين وتقديم التسهيلات للذين يأتون من أجل المساعدة.

ت_ الحفاظ على الممتلكات الشخصية والبطاقة الشخصية للجنود القتلى والمصابين وتقع على عاتق الممثليات وظيفة إرجاعها لدول الجنود.

ث_ حيادية الموظفين الصحيين العاملين أثناء الحروب وتحديد إشارات ورموز خاصة لتمييزهم بأنهم موظفين صحيين وذلك عن طريق المؤسسات التي تتأسس نتيجة هذه الاتفاقية الموقعة بين الدول المذكورة. وحتى الممثليات التابعة لهذه المؤسسات عليها تنفيذ هذه القرارات[٥١].

لذلك وقعت الحكومة العثمانية على إتفاقية جنيف[٥٢] في الخامس من تموز ١٨٦٥م، وفي العام ١٨٦٩م قامت الدولة العثمانية بتأسيس جمعية خيرية تحت اسم رعاية الجنود العثمانيين الجرحى وعُيّن ماركو باشا ((Marko Paşa))[٥٣] رئيساً لهذه الجمعية والذي كان في الوقت ذاته مديراً للمدرسة الطبية العثمانية[٥٤]. وكانت الجمعية تتكون من أفراد من ست وستون دولة مؤسسة، ثلاث وأربعون من المؤسسين هم اطباء وكان من بين مؤسسي الجمعية سياسيين وموظفين في السفارة البريطانية والسفارة النمساوية ولكن تم حل هذه الجمعية بسبب عدم موافقة الحكومة العثمانية على إستمرارها[٥٥]. ويلاحظ إن من أبرز أسباب حل الجمعية هي الحرب التي دارت بين العثمانيين والصرب في عام ١٨٧٥م والأُخرى التي أندلعت بين العثمانيين والروس بين عامي ١٨٧٦_١٨٧٧م، وبسبب المشاكل التي عانى منها الجنود العثمانيين من قلة الخدمات الطبية و تقديم الخدمات للجنود الروس والصرب من قبل جمعية الصليب الأحمر وتفضيلهم على الجنود العثمانيون، لذلك قامت الحكومة العثمانية بتأسيس جمعية خيرية أُخرى ايماناً منها بوجوب تأسيس مثل هذه الجمعية الطبية لمساعدة الجنود العثمانيين الجرحى. ويبدوا إن الوضع المأساوي الذي كان عليه الجنود العثمانيين جعل الدكتور غوستاف ماينياري ((Güstav Mainieri'yi)) الذي كان رئيساً لفرع جمعية الصليب الأحمر الدولي في جنيف يقوم بأرسال رسالة إلى أحد أعضاء الجمعية الطبية العليّا ألا وهو الدكتور بيشتمالجي (Dr. Peştemalcı'ya) مفادها إنه أوصى بوجوب الإسراع بتأسيس جمعية طبية في الدولة العثمانية موازية لجمعية الصليب الأحمر الدولية في جنيف وأن تكون على اتصال دائم معها[٥٦]. لذلك تم في الخامس والعشرون من تموز عام ١٨٧٦م وبجهود ماركو باشا إعادة افتتاح الجمعية وعقد إجتماع بين أعضائها وأعضاء جمعية الصليب الأحمر الدولية وتقرر فيها تطبيق إتفاقية جنيف في الدولة العثمانية، وإختيار رمز آخر بدل الصليب الاحمر، وإعداد هيكلية الجمعية المؤسسة، والبدء بجمع المساعدات، وإختيار هيئة ادارية تعمل بإستمرار. وبعد هذا الإجتماع وعلى ضوء القرارات التي أُتخذت فيه تقرر تسمية الجمعية بأسم جمعية (الهلال الأحمر) وتم إعداد مسودة لها وتم التصديق عليها من قبل وزارة الدفاع وبذلك تكون قد تأسست الجمعية بشكل رسمي، إذ تم إختيار الهيئة الإدارية للجمعية في الرابع عشر من نيسان عام ١٨٧٧م وبدأت أعمالها تحت حماية ورعاية السلطان عبد الحميد الثاني[٥٧].فضلاً عن ذلك كان للأهالي وميسوري الحال دوراً إغاثياً وخيرياً متميزاً من خلال تقديم الدعم المادي والمعنوي لجمعية الهلال الأحمر، ففي الوقت الذي كانت فيه الحرب العثمانية – الروسية قائمة عام ١٨٧٧م، كانت الجمعية تفتقر إلى المصادر المالية، لذلك تم جمع مبلغ (٧٠,٠٠٠) سبعون ألف ليرة عثمانية وعلى ضوء أهداف تأسيس الجمعية تم توزيع المساعدات المالية للجنود الذين كانوا يحاربون في جبهات القتال، كما تم إنشاء مستشفيات متنقلة في ميادين القتال من قبل الجمعية، فضلاً عن ذلك تم أيضا تأجير القطارات من أجل نقل الجنود الجرحى، وأيضا تم تخصيص مبالغ مالية للنازحين من جراء الحرب، وبالرغم من النجاحات الكبيرة

التي حققتها الجمعية فقد تم حلها أيضاً وإيداع وارداتها في البنك المركزي العثماني. وبعد عشرون عاماً من التوقف عادت جمعية الهلال الأحمر مجدداً لتقدم خدماتها فباشرت بعملها بشكل مؤقت وذلك في الحرب التي اندلعت بين الدولة العثمانية واليونان في عام ١٨٩٧م، إذ تم إبان تلك الحرب الدائرة جمع مساعدات كبيرة من أبناء الشعب فضلاً عن المساعدات التي كانت متبقية من جمعية الصليب الأحمر وتم إعطاؤها إلى الجيش العثماني، كما تم تأجير البواخر لنقل الجرحى، وبالرغم من النجاحات الباهرة التي حققتها الجمعية تم إغلاقها مجدداً نتيجة لقرار الحكومة العثمانية آنذاك[٥٨].ونتيجة لجهود حثيثة من قبل فائق باشا سفير الدولة العثمانية لدى فرنسا، فضلاً عن جهود وزير الخارجية آنذاك رفعت باشا تقرر في عام ١٩١١م إنشاء جمعية جديدة للهلال الأحمر، ومن أجل تأسيس الجمعية مجدداً تم إعداد لجنة عليّا مؤلفة من الأطباء والعسكريين والسياسيين، إذ تقرر في الاجتماع الذي عقده أعضاء اللجنة في منزل الدكتور بسيم عمر باشا إعداد قوانين الجمعية وتقديمها إلى مجلس شورى الدولة من أجل التصديق عليها من قبل المجلس، وقد تم تطبيقها والعمل بها فعلياً في ٢٠ نيسان عام ١٩١١م، وكان من بين مؤسسي الجمعية مدراء مدارس وعلماء ونواب وأطباء يبلغ عددهم مئة شخص تقريباً، إذ عقدت الجمعية مؤتمرها الأول في ٢٦ نيسان عام ١٩١٢م وتقرر اختيار رئيس الوزراء السابق (الصدر الأعظم) حسين حلمي باشا رئيساً للجمعية، وتكريماً لجهود الدكتور بسيم عمر باشا في تأسيس الجمعية وتسميتها باسم جمعية الهلال الأحمر، فقد قرر أعضاء الجمعية منحهُ الوسام الذهبي تكريماً له، وأصبحت للجمعية فروع كثيرة وفي أغلب مناطق الدولة العثمانية، وكانت الفروع التي بدأت بالخدمة الفعلية منذُ عام ١٩١٢م هي فروع إزمير ((İzmir)) في غرب الأناضول، وكذلك فرع في بورصة، وطرابزون ((Tarabzon)) في شمال شرق الأناضول على ساحل البحر الأسود، فضلاً عن أحياء العاصمة إسطنبول قاضي كوي ((Kadıköy)) وأرن كوي ((Erenköy))، وأزنيك ((İznik)) في أقصى شمال غرب الأناضول وبودروم ((Bodrum)) الواقعة في جنوب غرب الدولة العثمانية على سواحل بحر إيجة وكوتاهية ((Kütahya)) في غرب الأناضول، وماجكا ((Maçka)) إحدى مناطق طرابزون[٥٩].كانت جمعية الهلال الأحمر جمعية خيرية وخدمية ذات مسؤوليات غير محدودة، ولها دور كبير وفعال في تقديم الخدمات الطبية والإنسانية إبان حروب البلقان (١٩١٢_١٩١٣م)، إذ كان من بين وظائفها وخدماتها في تلك الحرب تقديم المساعدات للمتضررين من اليتامى والمعاقين[٦٠].

أما بالنسبة لجمعية الهلال الأحمر العثماني فقد وقع على عاتقها مسؤوليات كبيرة لتقديم الخدمات الطبية والإنسانية وفي مساحات شاسعة من أرجاء الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، إذ كانت الجمعية تقدم خدمات طبية للمقاتلين وعلى مختلف الجبهات التي كانت الدولة العثمانية تحارب فيها مثل:

١. جبهة الشرق (جبهة القوقاز): أنشأت مستشفى في أرضروم ((Erzurum)) شمال شرق الأناضول بسعة خمسمائة سرير.
٢. جبهة جناق قلعة ((Çanakkale)) في مضيق الدردنيل: أرسلت جميع أنواع الأدوية والمستلزمات الطبية الى الجبهة، وأسست مستشفى في آدابازاري ((Adapazarı))[61] بسعة مئتي سرير.
٣. جبهة السويس: أسست مستشفى في المدينة المنورة بسعة أربعمائة سرير، كما أسست مستشفى متنقل في القدس[٦٢].

لذلك كان من بين وظائف وخدمات جمعية الهلال الأحمر في تلك الحرب تقديم المساعدات للمتضررين من اليتامى والمعاقين، وكذلك تقديم المساعدات للمهاجرين والمشردين نتيجة إحتلال دول الوفاق لأراضي وممتلكات الدولة العثمانية[٦٣].

الخاتمة

ـ منذُ بداية القرن التاسع عشر ومع ظهور المؤسسات الصحية التي أُقيمت حديثاً على الطراز الأُوروبي بدأت الدولة العثمانية في إستخدام مصطلح (خسته خانة) للدلالة على المستشفيات، وكانت إدارة كافة المستشفيات عند العثمانيين مُناطة بأمر الحكيمباشي المسؤول عن الشؤون الصحية في السراي (القصر) وخارجه، وهو الذي يمسك السجلات التي تسجل فيها أسماء الأطباء الرسميين وأحوالهم، وفي حالة الحاجة إلى طبيب في أحد الأماكن فهو الذي يقترح تعيين من جاء عليه الدور أي الأقدم والأصلح منهم في ذلك المكان، وكان لكافة المستشفيات عند العثمانيين ترتيب خاص، لذلك فإن الصورة القاتمة العامة عن الطب في العهد العثماني هي غير صحيحة، فكان هناك أطباء مهرة، كما يوجد اهتمام بالمرضى لاسيما المصابون بالأمراض العقلية والنفسية، وكان ذلك يتناسب نوعاً ما مع موجود من تطور في هذه المدة، بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك إنغلاق علمي كما تدعي بعض التيارات الفكرية، ولكن كان هناك قلة وعي صحي عند الناس لا يتلائم مع متطلبات وروح العصر.

ـ كانت دور الشفاء في العهد العثماني بمثابة مؤسسات وقفية تقوم بنفس الوظيفة التي تقوم بها مستشفيات اليوم في العناية بصحة الأهالي من كافة طبقات المجتمع، وتمارس في الوقت نفسه التعليم الطبي جرياً على عادة التعليم التقليدي، من خلال العلاقة بين المتعلم والمبتدئ.

ـ حافظت الدولة العثمانية على الركائز الأساسية في الحضارة الإسلامية، على صعيد البناء الإجتماعي والثقافي في مؤسساتها العلمية، لاسيما الطب إذ كانت كتب ومؤلفات الطب العثماني مليئة بالمصطلحات المبنية على التراث الطبي الإسلامي التقليدي، فضلاً عن المصطلحات العثمانية الطبية المستمدة من جذور عربية، وكان لذلك التطور أثر واضح على تدريس الطب في الولايات العربية بالعهد العثماني، لاسيما في مدرسة طب الشام التي أُنشئت منذُ عهد السلطان عبد الحميد الثاني، والتي تحولت بعد الحرب العالمية الأولى إلى معهد يسمى (معهد الطب العربي)، الذي يُعرف حالياً بكلية الطب التي تتبع جامعة دمشق، وهي كلية الطب الوحيدة التي تمارس التعليم الطبي باللغة العربية في الوطن العربي.

ـ أن إرتباط القطاع الصحي العثماني بنظارة الداخلية (وزارة الداخلية) بدلاً عن نظارة الحربية (وزارة الدفاع) في بدايات العقد الثاني من القرن العشرين، فضلاً عن استحداث مؤسسات صحية جديدة في الدولة العثمانية، كانت بمثابة النواة والبوادر الأولى لإنشاء وزارة مستقلة للصحة والرعاية الإجتماعية، وبداية لفك الإرتباط بنظارتي الحربية والداخلية، إذ كما هو معلوم لم تكن في الدولة العثمانية وزارة مستقلة للصحة بل كان القطاع الصحي فيها يرتبط تارةً بنظارة الحربية، ولعل السبب في ذلك الإرتباط يعود لكون الدولة العثمانية دولة ذات طابع ونشأة عسكرية بإمتياز، ويرتبط تارةً أُخرى بنظارة الداخلية، ولعل السبب في تحول إرتباطها من نظارة الحربية إلى الداخلية في العقد الثاني من القرن العشرين (كما أسلفنا)، يعود لقوة الشخصيات التي تولت نظارة الداخلية، على سبيل المثال لا الحصر شخصية طلعت باشا أحد قادة الإتحاد والترقي المؤثرين في صنع القرار السياسي بالدولة العثمانية في بدايات القرن العشرين. ولكن مهما يكن من أمر فإن فك إرتباط القطاع الصحي وتحوله من نظارة الحربية إلى الداخلية، قد أسهم في حصول تطور في القطاع الصحي لأن نظارة الداخلية ذات طابع مدني أكثر من نظارة الحربية (نوعاً ما)، لذلك نرى إن هذا التطور قد تمثل بإستحداث مؤسسات صحية جديدة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، وهذا بدوره كان حافزاً مشجعاً لتأسيس وزارة مستقلة للصحة في حكومة المجلس الوطني التركي الكبير التي شكلها مصطفى كمال أتاتورك إبان الحركة الوطنية التركية (١٩١٩_١٩٢٢م).

ـ كان للدولة العثمانية إهتماماً ملحوظاً بالجانب الإغاثي من خلال تقديم المعونة والمساعدات الإنسانية للمحتاجين والمتضررين من الأوبئة والأمراض والكوارث البيئية والطبيعية سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات أو دول، وهذا الدور إضطلعت به جمعية الهلال الأحمر منذُ تأسيسها، ولعل خير مثال على ذلك ما عبر عنه مؤخراً ممثلي المنظمات الإنسانية العالمية التابعة للأُمم المتحدة والإتحاد الأوروبي، بقولهم إن تركيا الحديثة دولة سخية وتمتلك سجلاً إنسانياً متميزاً في تقديم المساعدات الإغاثية لأغلب دول العالم وهذا السخاء تمتد جذوره التاريخية إلى أيام الدولة العثمانية.

الهوامش

(١) أن الآراء تفاوتت حول ظهور منصب رئيس الأطباء عند العثمانيين، ومن هو أول من نصب رئيساً للأطباء (حكيمباشي) . فمنذُ عهد السلطان أورخان الغازي حتى عهد السلطان بايزيد الثاني كان للسلاطين أطباء خصوصيون يرعونهم ويرعون عائلاتهم من الناحية الصحية. ففي عهد السلطان مراد الثاني مثلاً كان يوجد سنان شيخي، وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يوجد قطب الدين أفندي ويعقوب چلبي، ولكن هؤلاء كانوا يعملون أطباء خصوصيين للسلاطين وليسوا حكيم باشيين. للمزيد من التفاصيل يُنظر:

Seçil Karal Akgün & Murat Uluğtekin, Hilali Ahmer'den Kızılay'a, Ankara, 2002, S.302.

(2) Ayşegül D. Erdemir - Esin Kahya, Bilimin Işığında Osmanlıdan Cumhuriyete Tıp ve Sağlık Kurumları, Ankara, 2000, S.252.

(٣) أقجة: (Akce) تعرف بـ (عثماني أقجة) وهي عملة نقدية عثمانية ضربت من الذهب والفضة في عهد السلطان أورخان وزنها ربع درهم ما يقارب (١٠١٥-١٠١٨) غراماً، أي ما يعادل ربع مثقال من الفضة، وصارت العملة الرسمية للدولة وبقيت متداولة فيها، ولم يتغير وزنها وطرازها الى أنّ حل القرش بدلاً عنها في سنة (١٦٩٧م). للمزيد من التفاصيل ينظر: إيناس زكريا الصمادي، صدارة آل كوبرلي في العهد العثماني (١٦٥٦-١٧٠٢م)، رسالة ماجستير، (غير منشورة)، جامعة اليرموك، الاردن، ٢٠٠٢م، ص١٧؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، د.م، ١٩٩٠م، ص١٩.

([4]) Ayten Altıntaş, "Tıphanei Amire'nin Kuruluşu" Türk Tıp Eğitiminin Önemli Adımları, İstanbul, 2006, S.48.
([5]) Sağlık Hizmetlerinde 50.Yıl, Sağlık ve Sosyal Yardım Bakanlığı Yayınları, Ankara, 1973, S.13.
([6]) Erdem Aydın, Türkiye'de Sağlık Teşkilatlanması Tarihi, Ankara, 2002, S.9.
([7]) A. E., S.11.

([٨]) أمير چلبي: الحكيمباشي المشهور للسلطان مراد الرابع (المتوفي سنة ١٦٣٨_١٦٣٩م) درس الطب في القاهرة وعمل رئيساً للأطباء في بيمارستان قلاون لمدة طويلة، وألف كتابا في الطب عرف بأسم (أُنموذج الطب) ظل يستخدمه الأطباء العثمانيون مرجعاً لهم مدة طويلة. للمزيد من التفاصيل يُنظر:

Osmanlı Doktorları Ansiklopedisi, Cilt.1, Ankara, 1954, S.168.

([٩]) صالح بن نصر الله: الحكيمباشي (المتوفي سنة ١٦٧٠_١٦٧١م) والذي شغل هذا المنصب لسنوات طويلة، وترك لنا العديد من كتب الطب تأليفاً وترجمة، ولا سيما كتابه المعروف بأسم (غاية الاتقان في تدبير بدن الإنسان)، ثم ترجماته لكتب (پاراسيلسوس) التي كانت السبب وراء ظهور تيار الطب الحديث، وبوأته مكانة مرموقة في ذلك المجال. للمزيد من التفاصيل يُنظر: A. E., Cilt.4, S.230.

([١٠]) حياتي زاده مصطفى فيضي أفندي: الحكيمباشي (المتوفي سنة ١٦٩٢_١٦٩٣م) الذي ألف خمس رسائل بالتركية أطلق عليها إسم (الرسائل المشفية في أمراض المشكية) وكانت كتاباً في الطب ترك أثرا عظيماً آنذاك. للمزيد من التفاصيل يُنظر: A. E., Cilt.4, S.348.

([١١]) صبحي زاده عبد العزيز أفندي: الحكيمباشي (المتوفي سنة ١٧٣٨م) وهو أحد الحكماء الماهرين الذين ظهروا في القرن الثامن عشر، فقد ترجم إلى اللغة العثمانية المؤلفات التي وضعها هيرمان بوئرهاوه الفلمنكي (المتوفي ١٧٣٨_ ١٧٣٩م)، وجعلها تحت عنوان (قطعات نقاوه في ترجمة كلمات بوئرهاوه)، ومن ثم كان له الفضل في إدخال تلك الكتب إلى أدبيات الطب العثماني. للمزيد من التفاصيل يُنظر: A. E., Cilt.4, S.367.

([١٢]) مصطفى بهجت أفندي: ولد في إسطنبول في ٢٤ نيسان ١٧٧٤ في منطقة أيوب سلطان (أبو أيوب الأنصاري)، شغل منصب (حكيمباشي) رئيس الأطباء في القصر السلطاني العثماني في عهد السلطانيّن سليم الثالث و محمود الثاني، تعلم اللغات العربية والفارسية والألمانية والفرنسية وترجم العديد من الكتب الأجنبية إلى العثمانية، وألف كتابين ضخمين من ٤٤ مجلد (يقع كل منهما ب ٢٢ مجلد) أحدهما في الجراحة والثاني في الأمراض والأوبئة وكيفية الوقاية منها، فضلاً عن ذلك ألف في مجال الطب عدداً من الرسائل الصغيرة والمهمة، كما عرف إلى جانب ذلك بانه صاحب الريادة في اقامة وتأسيس كلية الطب الحديثة (طبية مكتبي)، ومن أهم= =آثاره رسالته عن لقاح الجدري ورسالته عن مرض الزهري، توفي في إسطنبول في ٣١ أذار ١٨٣٤م. للمزيد من التفاصيل يُنظر: A. E., Cilt.4, S.245.

([١٣]) تميل بعض الدراسات في تسميتها إلى إستخدام مفردة الإصلاح ((Reform))، إلا إن المصادر التركية، بشكل عام، تفضل إستخدام كلمة تنظيمات مبررين ذلك بأن التنظيمات عَلَمٌ على عهد بعينه، فهو لا إنقلاب ولا إصلاح، بل إنه عهد تنظيم وتقنين واع يعتمد على (مبدأ التدرج) خارج هذين الحدين. ولا يجدر وضع مغزى إصطلاح (التنظيمات) بالنظر إلى المعاجم، وانما إلى الاستعمال الإصطلاحي له في عصره، فهو لم يكن إعادة تنظيم فقط ((Reorganization))، ولكنه تنظيم لحياة وعهد بأكمله، والأهم من هذا إنه يعني التشريع، فهو عصر وضع اللوائح والقوانين والتشريعات. للمزيد من التفاصيل يُنظر: محمد عصفور سلمان الأُموي، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي (١٨٣٩_١٩٠٨)، أُطروحة دكتوراه، (غير منشورة)، كلية الآداب_جامعة بغداد، ٢٠٠٥؛ أنكه لهارد، تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، نقله إلى العثمانية: علي رشاد، ترجمه إلى العربية: محمود علي عامر، تقديم وتعليق: سمر بهلوان، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٨.

([14]) Mehmet Süreyya, Sicili Osmani, Cilt.4, İstanbul, 1999, S.721.
([15]) Ali Seydi Bey, Teşrifat ve Teşkilat- Kadimemiz, Ankara, 1989, SS. 119_123.
([16]) M.Z. Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, Cilt.1, İstanbul, 2001, SS. 795_796.
([17]) İslâm-Türk Hastahaneleri ve Avrupa Tesirleri, İstanbul, 1991, S.308.
([18]) A.S. Ünver Ve A.Terzioğlu, "Ortaçağ" Büyük Selçuklu Imparatorluğu Zamanın-da Vakıf Hastahanelerin Bir Kısmına Dair, İstanbul, 1997, S.18.
([19]) Evliya Çelebi, Evliya Çelebi Seyahatnâmesi Cilt.3, İstanbul, 1985, S.468.
([20]) O.Ş. (Uludağ), Beş Bucuk Asırlık Türk Tababeti Tarihi, Ankara, 1991, SS.91_ 93.
([21]) B.N. Şehsuvaroğlu, Türk Tip Tarihi, İstanbul, 1989, S.26.
([22]) Galib Ata, Tib Fakültesi İstanbul Darülfünûnu, İstanbul, 1989, S.74.

([23]) M.Cunbur, Kadınların kurdukları Şikâhâneler, Ankara, 1978, S.342.
([24]) Galib Ata, A. G. E., S.74.
([25]) M.Cunbur, A. G. E., S.344.
([26]) O.L.Barkan, Süleymaniye Camii ve İmareti Tesislerine Ait Yillik Bir Muhasebe Bilançosu, İstanbul, 1971, SS.393_394.
([27]) A.S. Ünver Ve A.Terzioğlu, A. G. E., S.168.
([28]) O.Ş. (Uludağ), A. G. E., SS.118_119.
([29]) A.İ. Gencer, Türk Denizcilik Tarihi Araştırmaları, İstanbul, 1996, SS.54_60.

(٣٠) أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله الى العربية: صالح سعداوي، ج٢، منظمة المؤتمر الإسلامي _ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، إسطنبول، ١٩٩٩، ص٥١٦.

(٣١) غلطة: وهي أحدى أقدم مناطق أسطنبول وتقع في الجزء الأوربي منها، تتميز بموقعها بين القرن الذهبي والبوسفور. للمزيد من التفاصيل يُنظر: س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق: عصام محمد الشحادات، دار إبن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢، ص٣٧٢؛ يوسف عبد الكريم طه مكي الرديني، المؤسسة العسكرية العثمانية ١٢٩٩_١٨٣٩ (دراسة تأريخية)، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٤، ص١١٥.

(٣٢) أكمل الدين إحسان أوغلو، المصدر السابق، ص٥١٧.

([33]) A.Şişman, Tanzimat Döneminde Fransa'ya Gönderilen Osmanlı Öğrencileri (1839 - 1876), Ankara, 1999, S.22.
([34]) E.İhsanoğlu-M.Kaçar, Aynı Münasebetle iki Nutuk: Sultan II. Mahmud'un Mekt-eb-i Tibbiye Ziyaretinde irad Ettiği Nutkun Hangisi Doğrudur, İstanbul, 1994, S.95.
([35]) E.İhsanoğlu, "Suriye'de Son Dönem Osmanlı Sağlık Müesseseleri İle İlgili Bazı Notlar", İstanbul, 1998, SS.47_49.
([36]) Ayşegül D. Erdemir - Esin Kahya, A. G. E., S.255.
([37]) Ayten Altıntaş, A. G. E., S.59.

(٣٨) أكمل الدين إحسان أوغلو، المصدر السابق، ص٥٨٧.

([39]) Sağlık Hizmetlerinde 50.Yıl, A. G. E., S.18.

(٤٠) أكمل الدين إحسان أوغلو، المصدر السابق، ص٥٨٧.

([41]) Erdem Aydın, A. G. E., S.16.
([42]) Orhan Yeniaras, Türkiye Kızılay Tarihine Giriş, İstanbul, 2000, S.86.

(٤٣) لويس باستور: هو عالم كيميائي فرنسي ولد في ٢٧ كانون الأول ١٨٢٢م في باريس، وهو أحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها. ساهمت اكتشافاته الطبية بإعداد لقاحات مضادة للأمراض والأوبئة، كان يُعرف لدى عامة الناس بسبب اختراعه طريقة لمعالجة الحليب ومنعه من التسبب في المرض، وهي العملية التي أطلق عليها لاحقاً مصطلح البسترة. توفي في عام ١٨٩٥ ودفن في كاتدرائية نوتردام، ولكن تخليداً لذكراه وجهوده في خدمة الإنسان وصحته. تمت إعادة دفن رفاته في بناية معهد باستور. للمزيد من التفاصيل يُنظر: حسن أحمد جعام، لويس باستور مكتشف الجراثيم، مراجعة: نجيب اللجمي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، ١٩٩٥؛ لويز إي روبنز، لويس باستور وعلم الجراثيم الخفي، تعريب: محمد خالد شاهين، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٤.

(٤٤) المير ألاي: وتعني أمير الموكب (آلاي بكي)، والأسم القديم كذلك لرتبة العقيد المستعملة حالياً في الجيش التركي. للمزيد من التفاصيل يُنظر: صالح سعداوي صالح، معجم مصطلحات التاريخ العثماني – معجم موسوعي مصور، مج٣، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ٢٠١٦، ص١٣٣٨.

(٤٥) حسين رمزي بك: وهو طبيب عثماني ولد بتاريخ ٢٧ آذار ١٨٣٩م في اسطنبول. وقد عمل في مجال علم الأحياء الدقيقة، في عام ١٨٨٦ تم إرساله من قبل الدولة العثمانية إلى باريس لدراسة ومعرفة اللقاحات المكتشفة حديثاً، وبعد عودته إلى اسطنبول بذل جهوداً كبيرة لتنفيذ ونشر الابتكارات في مجال علم البكتيريا، وفي عام ١٨٩٣ افتتح مركز للتطعيم ومكافحة الجراثيم، توفي في ١٨ كانون الأول ١٨٩٦م في اسطنبول. للمزيد من التفاصيل يُنظر: Osmanlı Doktorları Ansiklopedisi, A. G. E., S.568.

(٤٦) أكمل الدين إحسان أوغلو، المصدر السابق، ص٥٨٨.

([47]) Ata Soyer, "Türkiye'nin İktisadi ve Sosyal Tarihi Bağlamında Başlangıcından 1960'a Kadar Sağlık Hizmetleri ve Sağlık Bakanlığı" Toplum ve Hekim, Cilt.16, Sayı:6, Kasım_Aralık 2001, S.414.
([48]) Sağlık Hizmetlerinde 50 Yıl, A. G. E., S.23.

٤٩() نظراً للأهمية والمكانة الدينية التي تتمتع بها الحجاز، فقد أولت الدولة العثمانية وسلاطينها وصدورها العظام إهتماماً متزايداً بها ولاسيما في الشؤون الصحية، فحينما أخذت أعداد الحجاج بالتزايد، قامت الدولة العثمانية بإتخاذ سلسلة من الإجراءات الصحية للحيلولة دون إنتقال الأمراض الوبائية. فأقامت محاجر صحية في كل من تبوك والحجر، وقد أُلحق بالمحجر الصحي في تبوك مستشفى يضم عشرين سرير، وفيه صيدلية يتوفر بها كل ما يلزم من أدوية وعقاقير ومستلزمات طبية، وكانت هذه المحاجر تتبع من الناحية الإدارية مديرية الصحة في دمشق. أما البعثة الصحية المكلفة بالإشراف على حالة الحجاج فكانت تتألف من سبعة أطباء يصلون إلى المحجر في الوقت المناسب خلال موسم الحج. لذلك كان حرص السلطة العثمانية على صحة الحجاج، ومنع إنتشار الأوبئة في الحجاز مطلباً أساسياً وسياسياً بالدرجة الأولى؛ وذلك لأن الدول الأوروبية كانت تتربص بالدولة العثمانية، وتروج لكل ما يسيء إليها. وكان مما روجت له هو إن الحجاز موطن الأمراض والأوبئة. إذ كان هدف الدول الأوروبية إجهاض مشروع الجامعة الإسلامية الذي سعى السلطان عبد الحميد إلى تحقيقه؛ وذلك عن طريق التدخل المباشر في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. ولكن الدولة العثمانية نجحت في تجنب ما خططه لها أعدائها في المجال الصحي، من خلال إتخاذها سلسلة من الإجراءات الصحية في محطات سكة الحديد، مما قلل من إصابة الحجاج بالأمراض المعدية. للمزيد من التفاصيل يُنظر: مطلق بن صيّاح البلُوي، الوجود العثماني في شمال الجزيرة العربية ١٣٢٦_١٣١٤هـ/ ١٩٠٨_١٩٢٣م، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١١، ص ص ١٠٦_١٠٨.

([50]) Erdem Aydın, A. G. E., S.18.
([51]) Kızılay ve Kızılhaç'ın Milletlerarası Kaynakları (Sözleşmeler – Tüzükler – Kararlar), Ankara, 1964, SS.13_16.

([٥٢]) إتفاقية جنيف: وهي الإتفاقية التي أقرتها اللجنة الدولية لإغاثة الجنود الجرحى تأسست في عام ١٨٦٣م، والتي أصبحت تسمى من عام ١٨٧٦م وإلى اليوم باللجنة الدولية للصليب الأحمر وهي منظمة دولية محايدة لمعالجة الجرحى وأسرى الحرب. للمزيد من التفاصيل يُنظر: شريف عتلم ومحمد ماهر عبدالواحد، موسوعة إتفاقيات القانون الدولي الإنساني النصوص الرسمية للإتفاقيات والدول المصدقة والموقعة، بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٦٩_٨٣.

([٥٣]) ماركو باشا: وهو طبيب عثماني من أصول يونانية: ولد في جزيرة سيروس المطلة على بحر إيجة عام ١٨١٤م، وبعد إن أكمل دراسته الإبتدائية والثانوية في مسقط رأسه، ذهب إلى إسطنبول لإكمال دراسته الطبية،= =وبعد تخرجه عمل في قسم الجراحة بالكلية الطبية في إسطنبول، إذ إكتسب سمعة طيبة خلال مدة وجيزة، وقد ساهم في تأسيس جمعية الهلال الأحمر العثمانية، وفي عام ١٨٧١ م أسند إليه السلطان عبد العزيز مسؤولية إدارة المدرسة الطبية في إسطنبول، وفي عهد السلطان عبدالحميد الثاني أصبح عضواً في مجلس المبعوثان، توفي ماركو باشا في إسطنبول في ٥ كانون الأول ١٨٨٨م. للمزيد من التفاصيل يُنظر:

Osmanlı Doktorları Ansiklopedisi, A. G. E., Cilt.3, S.168.
([54]) Zuhal Özaydın, Osmanlı Hilali Ahmer Cemiyeti Salnamesine Göre Osmanlı Hilali Ahmer Cemiyetinin Kuruluşu, Türk Tıp Tarihi Araştırmaları Dergisi, Cağaloğlu İstanbul, S.70.
([55]) A. E., S.75.
([56]) A. E.
([57]) Ayşegül D. Erdemir - Esin Kahya, A. G. E., S.339.
([58]) Seçil Karal Akgün & Murat Uluğtekin, A. G. E., S.308.
([59]) Zuhal Özaydın, A. G. E., SS.76_77.
([60]) Nil Sarı & Zuhal Özaydın, 1.Dünya Savaşında Osmanlı Hilali Ahmer Cemiyetin-in Sağlık ve sosyal Yardıma Katkıları, II. Türk Tıp Tarihi Kongresi (20_21Eylül1990) Bildiri Kitabı, Ankara, 1999, SS.161_163.

([61]) آدابازاري: هي مدينة في شمال غرب تركيا وعاصمة محافظة سقاريا. كان اسم المحافظة نفسها في الأصل آدابازاري، كذلك آدابازاري هي جزء من المنطقة المكتظة بالسكان في الدولة العثمانية، والمعروفة باسم منطقة مرمرة. للمزيد من التفاصيل يُنظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج٦، دار رواد النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦، ص٤٨.

([62]) Nil Sarı & Zuhal Özaydın, A. G. E., SS.163_165.
([63]) A. E., SS.165_167.